دراسات تاريخ الجزيرة العربية

الأبحاث المقدمة للندوة العالمية الرابعة لدراسات تاريخ الجزيرة العربية في ٧ - ٩ ذي القعدة ١٤٢٠هـ الموافق ١٣-١٥ فبراير ٢٠٠٠م. قسم التاريخ وقسم الآثار والمتاحف، كلية الآداب جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية.

الكتاب الرابع

الجزيـرة العربيـــة

في

العصر الأموي

هيئة التحرير

أ. د. عبد العزيز بن صالح الهلابي

د. عمر بن سليمان العقيلي   د. محمد بن عبد الرحمن الثنيان

النشر العلمي والمطابع - جامعة الملك سعود

ص.ب ٦٨٩٥٣ - الرياض ١١٥٣٧ - المملكة العربية السعودية

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية للطباعة والنشر

جامعة الملك سعود، كلية الآداب، قسم الآثار والمتاحف

الجزيرة العربية في العصر الأموي. - الرياض، ١٤٢٤هـ

٥٠٩ ص ؛ ٢١ x ٢٨ سم

ردمك : 9960-37-517-X

١ الجزيرة العربية تاريخ العصر الأموي أ. العنوان

ديوي ٠٣ , ٩٥٣ ١٤٢٣/٦٧٠١

رقم الإيداع : ١٤٢٣/٦٧٠١

ردمك 9960-37-517-X

النشر العلمي والمطابع

١٤٢٤هـ/٢٠٠٣هـ

أثر الفتوحات الأموية في ترسيخ الصلات الحضارية بين الجزيرة العربية وشبه القارة الهندية

ابراهيم القادري بوتشيش

جامعة مولاي إسماعيل، مكناس ، المغرب

يجمع الدارسون العرب والمستشرقون المنصفون على أن الفتوحات الإسلامية لم تكن ذات طابع عسكري فحسب ، بل كانت أيضا فتحا حضاريا للبلاد المفتوحة ؛ وأن النهج الإنساني الذي سار على هديه الفاتحون المسلمون أسهم في نسج خيوط علاقات وطيدة مع البلدان التي فتحوها ، ناهيك عن الفتوحات السلمية التي تبلورت عن طريق التجارة والدعوة . ورغم خصوصية الفتوحات الأموية التي تميزت بغلبة الطابع العسكري ، فإنها كانت تحمل في جوفها بذور التعايش والعلاقات الودية ، بل إنها تحولت في عهد بعض الخلفاء الأمويين كالخليفة عمر بن عبد العزيز إلى فتح سلمي حضاري سرعان ما أصبح يشكل وعاء من العلاقات الإنسانية مع البلدان المفتوحة شملت العنصر البشري والاقتصادي والروحي . وبما أن شبه القارة الهندية كانت أقرب المناطق جغرافيا للجزيرة العربية ، فإنها كانت مرشحة أكثر من غيرها للحصول على النصيب الأوفر من هذه التأثيرات الحضارية . غير أن الفتوحات الأموية لم تشمل كل أراضي شبه القارة الهندية ، بل اقتصرت على بعض المناطق التي فتحت عسكريا أو سلميا ، ولذلك سنكتفي بدراسة العلاقة التي ربطت الجزيرة العربية بهذه المناطق المفتوحة ، وما نجم عنها من صلات حضارية .

لا سبيل لإنكار بعض العقبات التي تقف في وجه الباحث في دراسته لهذا الموضوع ، لعل أبرزها يكمن في ندرة المادة التاريخية وتشتتها في أمهات المصادر التاريخية ، وهو أمر يعزى إلى أن التدوين التاريخي العربي ـ الإسلامي لم يبدأ إلا في العصر العباسي ، علما أن دولة العباسيين جاءت على أنقاض دولة الأمويين ، لذلك لم يكن غريبا أن يشاطر معظم مؤرخيها الموقف العدائي للأمويين ، ومن ثم العمل عن قصد على تهميش أخبارهم والتعتيم على إنجازاتهم ، ناهيك عن التقصير المتعمد أحيانا في ذكر بعض الجوانب الهامة من تاريخهم ، مما يشكل خسارة للباحث الذي يطمح للحصول على أجوبة شافية يتطلبها البحث العلمي في هذا المجال .

مع ذلك ، يمكن في ضوء ما توفره المصادر التاريخية على قلتها ، وعلى هدي المادة المتاحة في مصادر أخرى غير تاريخية مثل كتب الجغرافيا والرحلات ، رسم الصورة العامة للعلاقات بين الجزيرة العربية وبعض المناطق من شبه القارة الهندية في العصر الأموي .

والجدير بالذكر أن علاقة الجزيرة العربية ببلاد الهند تمتد بجذورها إلى أقدم العصور، غير أنها تجذرت وأصبحت أكثر رسوخا وجنوحا نحو الانصهار الحضاري مع مرحلة انتشار الإسلام ، خاصة إبان الحكم الأموي الذي أفلح في القيام بفتوحات عسكرية ناجحة انتهت بضم أجزاء منها إلى حظيرة الخلافة الأموية .

والملاحظ أن المنطقة الشرقية من جزيرة العرب والمتمثلة في منطقة الخليج العربي لعبت دورا حاسما في نسج خيوط هذه العلاقة نظرا لموقعها الاستراتيجي ونفوذها القوي في رسم منحنياتها . فما هي التفسيرات والمقاربات التي تجعل تلك العلاقات في منطقة الضوء ؟ وما هي النتائج التي تمخضت عنها لتعطي للجزيرة العربية بعدا هاما في العلاقات الدولية آنذاك وتجعل من الحكم الأموي قطبا من الأقطاب الفاعلة والمؤثرة في صياغة نمط حضاري إسلامي وعالمي؟

إن هدف هذه الدراسة لا يكمن في نبش الرصيد المرجعي حول دور الجزيرة العربية في الفتوحات العسكرية التي أنجزت بشبه القارة الهندية فحسب ، بل يطمح كذلك إلى محاولة تفسير العلاقات التاريخية التي نجمت عن تلك الفتوحات ، وطرح إشكاليات قد تؤدي إلى لمس خيوط جديدة وتساؤلات لم يسبر غورها بشكل عميق . ولعلّ أهم التساؤلات التي تفرض نفسها عند دراسة أي علاقة بين طرفين يكمن في الآتي : هل كان التلاقي بين الجزيرة العربية وشبه القارة الهندية حتمية تاريخية حدثت داخل نسق تطوري أم كان ذلك أمرا عفويا ؟ ثم ما هي النتائج الحضارية التي تمخضت عن ذلك؟

أولا : انفتاح الجزيرة العربية على شبه القارة الهندية خلال العصر الأموي : هل كان حتمية تاريخية؟

كلما تناول الباحث دراسة المعطيات التي جعلت الجزيرة العربية توجه اهتمامها نحو شبه القارة الهندية خلال العصر الأموي لمعرفة ما إذا كانت تلك العلاقات حتمية أم جاءت في سياق عفوي ، إلا وتعددت أمامه المقاربات والتفسيرات المتنوعة ، والتي يمكن تناولها على الشكل الآتي .

١ ــ المقاربة التاريخية

لا يمكن إدراك علاقة الجزيرة العربية بشبه القارة الهندية إبان العصر الأموي دون الرجوع إلى الرصيد الذي أفرزه الواقع التاريخي قبل ظهور الإسلام ، ذلك أن هذا الرصيد شكل أرضية تاريخية انطلقت منها العلاقات بين المنطقتين . وفي هذا الصدد أثبتت الدراسات الأثرية أن الجزء الشرقي من الجزيرة العربية قام منذ الألف الثالث قبل

الميلاد بدور الوسيط التجاري بين شمال الجزيرة والساحل الغربي لشبه القارة الهندية ، فكان ذلك فرصة للاحتكاك بحضارة هرابا الناشئة في حوض السند.[١] واستمر التواصل بين المنطقتين مع تعاقب حكم دول بلاد الرافدين من العصر السومري القديم حتى الألف الأول قبل الميلاد.[٢]

وإذا صحت افتراضات ويلر Weeler من أن موضع " ملوخا " يقع في الجزء الأدنى من حوض السند ، فان ذلك ينهض دليلا على وجود علاقات قديمة بين المنطقة الشرقية من الجزيرة العربية والعالم الهندي ، يؤيد ذلك ما كشفت عنه الوثائق السومرية والأكادية من وجود علاقات بين ملوخا المذكورة ومنطقة ديلمون وماجان (البحرين وعمان حاليا) .[٣]

و بالمثل لعبت هذه المنطقة دور الوسيط بين شرق إفريقية وشبه القارة الهندية ، وحسبنا أن زراعة الذرة انتقلت إليها من إفريقيا الشرقية بواسطة عمان . ومن الراجح أن هذه الأخيرة صدرت إليها - على غرار المجتمعات الشرقية - النحاس الذي كان يفيض عن حاجتها.[٤]

وثمة سلع أخرى شكلت موضوع مبادلات تجارية بين المنطقتين في هذه العصور الباكرة تكشف عنها نصوص " لارسا " المدونة في المرحلة التي أعقبت انهيار مملكة أور الثالثة ، ومنها الخشب الأسود والحجر الأحمر والمرجان وغيرها.[٥]

ولم تتأسس هذه العلاقات القديمة عن طريق البحر فحسب ، بل لعبت الطرق البرية خيطا موجها لذات الأهداف ، خاصة الطرق التي تخترق بلاد الساحل الشمالي للخليج ومحطاتها الأساسية عيلام وكرمان وبلوجستان، وهي محطات تقع على طرق المواصلات التاريخية البرية بين الجزيرة العربية والعالم الهندي.[٦] لذلك لم يكن من قبيل الصدفة أن يحدث تفاعل حضاري بين المنطقتين ، تجلى خصوصا في الجانب اللغوي، وظهور الأختام الهندية في شمال منطقة الخليج العربي ، فضلا عن بعض الأوزان الواردة من حوض السند إلى البحرين.[٧]

ومما زاد هذا التواصل تجذرا ورسوخا ، الهجرات القديمة التي حدثت على شكل موجات بشرية متلاحقة بين عرب الجزيرة ، والجاليات الهندية كالزط والأساورة والسيابجة والبياسرة الذين استقروا بشواطئ الخليج العربي.[٨]

من خلال هذه المعطيات ، نستشف أن أسس العلاقات التاريخية بين الجزيرة العربية والقارة الهندية نشأت في نسق تطوري ، وقد هيأ هذا الرصيد من العلاقات القديمة الأرضية المناسبة لدخولها مرحلة النضج والاكتمال في العصر الإسلامي ، خاصة العصر الأموي الذي يهمنا في هذه الدراسة .

٢ ــ المقاربة الدينية

إن الرصيد التاريخي لمرحلة ما قبل الإسلام شكل المقدمة الطبيعية لنمو العلاقات بين المنطقتين. وبمجيئ الإسلام أصبح هذا الرصيد التاريخي يشكل مخزونا ثريا وخصبا لتعميق التواصل بينهما ، خاصة أن الديانة

الإسلامية جاءت تحمل معها مبدأ التعايش بين الشعوب وتسعى إلى تكوين إطار عالمي إنساني بغض النظر عن الجنس أو العرق ، مما ساهم في وضع علاقات الجزيرة العربية مع الهند في مسار واضح وصلب.

ومن المعلوم أن الفتوحات الإسلامية شكلت برنامجا سياسيا طموحا وهدفا استراتيجيا في مشروع الخلافة الأموية . ولّما كانت شبه القارة الهندية لا تزال معقلا من معاقل الوثنية كما يؤكد ذلك ابن خلدون،[٩] فقد بات بديهيا أن توجه إليها الدولة الأموية كل اهتمامها لاحتوائها داخل المجال الإسلامي . ولعبت بلدان الخليج دورا بارزا في هذا الصدد ، إذ يشير البلاذري[١٠] إلى دور والي البحرين وعمان في بداية بلورة فكرة فتح السند خلال العصر الراشدي الباكر ، ومن ثم أصبحت شبه القارة الهندية من البلدان المندرجة في برنامج الفتوحات الأموية ، لذلك لا سبيل لإنكار دور الإسلام في نسج خيوط العلاقات بين المنطقتين في إطارها الجديد . وإذا كانت هذه الفتوحات عسكرية ظاهريا ، فإنها حملت في عمقها بذور الإستقرار والتعايش السلمي.

٣ ـــ المقاربة البيئية والبعد الاستراتيجي

ترى مدرسة الحوليات الفرنسية ورواد التاريخ الجديد أن الجغرافيا والوسط البيئي يشكلان خيطا موجها لمجمل الأحداث والتقلبات في مختلف المسارات التاريخية . ونحن نتفق على صحة هذه المقولة بالنسبة لموضوع دراستنا ، ذلك أن قرب الجزيرة العربية من شبه القارة الهندية من جهة ، وتوفرهما على سواحل بحرية أمر ساهم دون شك في صياغة علاقاتها ونسج خيوط مصالحهما المشتركة. وإذا كانت الشعوب البحرية سباقة إلى الانفتاح على العالم الخارجي والاتصال بحضاراته على تنوع مشاربها ، فان المنطقتين المذكورتين لم تشذا عن هذه القاعدة . فوضعيتهما البحرية جعلتهما غير منغلقتين أو متقوقعتين ، بل حتمت عليهما الانفتاح على الخارج والاتصال بشعوب المعمور . وبما أن الجزء الشرقي من بلاد الجزيرة العربية كان يسيطر آنذاك على زمام البحار ، خاصة الخليج والمحيط الهندي،[١١] ونظرا لما كانت تحتله شبه القارة الهندية من مكانة متميزة في التجارة البحرية الآسيوية ، بل العالمية ، فمن البديهي أن تنفتح المنطقتان على بعضهما البعض ، خاصة وأن كليهما يعتبر طرفا مكملا للآخر ، ناهيك عن القرب الجغرافي بين المنطقتين ، فعامل الجوار عادة ما يكون حافزا لإقامة علاقات بين منطقتين ، ولا نعتقد أن هذا العامل الجغرافي لم يكن حاضرا لدى الحكم الأموي ، بل نميل إلى الظن أن المخططين لسياسة الأمويين كانوا يأخذون هذا العامل بعين الاعتبار ، وهو ما ساهم في نظرنا في جعل العلاقات بين الجزيرة العربية وشبه القارة الهندية أمرا حتميا.

أما من الزاوية الاستراتيجية فقد ظل الأمويون متطلعين إلى السيطرة على المحيط الهندي فضلا عن الخليج وذلك لإتمام فتوحاتهم العسكرية . ولا يخامرنا شك في أنهم أولوا الجزء الشرقي من الجزيرة العربية كل اهتمامهم بسبب إشراف هذه المنطقة على الخليج الذي ظل طيلة العصور الوسطى حلقة وصل بين الهند والجزيرة العربية . كما

أنه بقي طيلة تلك الحقبة ممرّا مائيا خطيرا يحظى بأهمية دولية بوصفه شريانا رئيسا يربط المحيط الهندي وعالم جنوب آسيا وشرقها وبالجزيرة العربية . ولم يفلح البحر الأحمر في منافسته إلا في أواخر العصور الوسطى عندما تمكن المغول من فرض هيمنتهم على معظم بلاد فارس والعراق ، فعرقلوا - بسبب نزعتهم الفوضوية - التبادل التجاري بين الشرق والغرب ، فتدنت أهمية الخليج آنذاك.[١٢]

وبقدر ما كان الخليج يشكل نقطة استراتيجية حساسة بالنسبة للحكم الأموي ، فقد كان هذا الأخير ينظر نفس النظرة لشبه القارة الهندية التي كانت تجسد بدورها موقعا حيويا في المحيط الهندي. ومما زاد في أهميتها توفرها على مادة افتقرت إليها أوروبا افتقارا مدقعا ، ألا وهي مادة التوابل التي كانت تستغل في تجهيز الأطعمة وحفظ اللحوم ، لذلك أولى الأفرنج اهتمامهم للهند والخليج العربي باعتباره معبرا حيويا . وهذا ما حتم على الأمويين في معركة كسب المواقع الاستراتيجية أن يسعوا لاحتكار المنطقتين معا ضد خصومهم البيزنطيين وغيرهم .

٤ ـــ المقاربة الاقتصادية

ومما زاد في حتمية الصلات بين المنطقتين ، حاجة كل طرف لمنتوجات الطرف الآخر انطلاقا من قاعدة التكامل الاقتصادي . فبتأمل ما كانت تنتجه شبه القارة الهندية ، يتضح أنها تمثل مواد نادرة بالنسبة للجزيرة العربية . وبرجوع الباحث إلى الصورة التي يقدمها الجغرافيون عن السند فإنه يستشف توافرها على منتوجات هامة رخيصة الأسعار . ويذكر في هذا الصدد بعض المناطق المتميزة برخص سلعها مثل المنصورة[١٣] والملتان[١٤] وبسمد وكيزكانان.[١٥]

إلى جانب الأسعار الرخيصة التي جلبت اهتمام تجار الجزيرة العربية ، فإن ما تزخر به الهند من ثروات معدنية شجعتهم على الاهتمام بها.[١٦] ولعل أهم تلك المعادن الطيب والجواهر واليواقيت والألماس وغيرها من المعادن الثمينة.[١٧] وتذكر المصادر الجغرافية بعض السلع التي كان يجلبها التجار العرب من الهند وخاصة القسط والقنا والخيرزان ،[١٨] فضلا عن الصندل والكافور والماكافور والجوزبوّا والقرنفل والقاقلة والكبابة.[١٩] كما أن صناعة السفن العربية كانت في أمس الحاجة الى خشب الساج ، فكان ساحل ملابار الهندي يمدهم بهذه البضاعة الهامة.[٢٠]

ونفس القول ينسحب على شبه القارة الهندية التي كانت في أمس الحاجة إلى منتوجات الجزيرة العربية ، خاصة اللؤلؤ واللبان والبخور[٢١] المنتشرة في منطقة القطيف واليمن والبحرين والجزر المحاذية للساحل العماني ،[٢٢] وهذا ما يفسر وجود الجاليات الهندية - خاصة فئة التجار - بكثرة في منطقة الخليج للحصول على هذه المواد التي كثر عليها الطلب حتى أن عمان أصبحت "مرسى السفن من السند والهند" على حد قول القلقشندي.[٢٣] ومن

ثم نعتقد أن الحاجة الاقتصادية لكلا الطرفين - الجزيرة العربية وشبه القارة الهندية - حتمت وجود علاقات بينهما سواء على صعيد المعاملات التجارية أو على المستويات الأخرى.

غير أن أهم معدن حفز الأمويين على نسج صلاتهم مع شبه القارة الهندية يتمثل في ما تشتمل عليه هذه الأخيرة من كميات وافرة من الذهب. وهذا ما يفسر استقطاب شبه القارة الهندية اهتمام الأمويين لما كانت تحويه من ذخائر هذا المعدن النفيس. ويكفي دليلا على ذلك وصف أحد الجغرافيين[٢٤] لها بقوله: " وحسبك ببلاد في بحرها الدر، وفي برّها الذهب وفي جبالها الياقوت والماس". ويشيد في موضع آخر بكثرة الذهب في مدينة قنوج الهندية.[٢٥] لذلك لاغرابة أن يخلص المقدسي[٢٦] إلى القول وهو بصدد الحديث عن إقليم السند إنه " إقليم الذهب والتجارات."

وفي نفس المنحى يذكر القلقشندي[٢٧] نقلا عن ابن سعيد وهو بصدد الحديث عن جزيرة المهراج - إحدى جزر شبه القارة الهندية - أن صاحبها " من أغنى ملوك الهند وأكثرهم ذهبا،" مما يعكس وفرة مادة الذهب بهذه الجزيرة .ولا نعدم روايات أخرى تؤكد وفرة الذهب؛ فالرحالة الادريسي[٢٨] يذكر أن مدينة الملتان سميت " بفرج بيت الذهب " لكثرة الذهب فيها . ويحدد جغرافي آخر[٢٩] هذه الكمية بأربعين بهارا، والبهار ثلاثة وثلاثون منا،[٣٠] أي ما يعادل حسب هذا الجغرافي ألفي ألف وثلاثمائة ألف وسبعة وتسعين ألفا وستمائة مثقال،[٣١] وهو رقم لا يمكن إلا أن يعطي شحنة تدفع بالعلاقات العربية الهندية إلى التجدر والرسوخ .

وإلى جانب الذهب لا تفوتنا الإشارة كذلك إلى وجود الفضة، فحسب ابن سعيد[٣٢] وجد بإحدى المدن الهندية ملك يقال أنه كان يفرش أرض قصره بالفضة . فإذا جردنا هذه الرواية وغيرها من الروايات السالفة الذكر من طابع المبالغات والشطط، أمكن فهم الحوافز الاقتصادية في نشأة العلاقات بين المنطقتين، وهذا ما حدا بأحد الباحثين[٣٣] إلى القول بأن " شبه القارة الهندية التي كان العرب يعرفون سعة أرجائها وثرواتها الطائلة كانت محط الأنظار وقبلة الأحلام." .

وبالمثل فإن ازدهار المراكز التجارية في كل من شبه الجزيرة الهندية والجزيرة العربية زاد من تمتين هذا التكامل الاقتصادي، الأمر الذي كان له تأثير واضح في توجه المنطقتين نحو بعضهما البعض. فمدينة الروز في الهند حسب وصف الجغرافيين " رفهة كثيرة التجارة ."[٣٤] أما مدينة الديبل فهي حسب تعبير الإصطخري[٣٥] " متجر عظيم وتجارتها من وجوه كثيرة،" فضلا عن كونها مركزا ومحطة تجارية نشيطة كان يقصدها التجار العمانيون بانتظام،[٣٦] وهذا ما يؤكده ويزكيه ابن سعيد[٣٧] مضيفا أنها تعد أهم ميناء في شبه القارة الهندية. وفي نفس السياق يصف هذا الجغرافي جزائر الديباجات على ساحل البحر الهندي بأنها " منازع للمراكب."[٣٨]

وعلى نفس المنوال غصت الجزيرة العربية، خاصة ساحلها الشرقي بالمراكز التجارية كالأبلة ومسقط وصحار وغيرها من المدن العمانية حتى أن ياقوت الحموي أورد حديثا منسوبا إلى النبي (ص) بأن " من تعذر عليه

الرزق فعليه بعمان ." (٣٩) وزاد اليهود الرذانية من تنشيط حركة الخط التجاري الرابط بين الخليج العربي والهند والشرق الأقصى. (٤٠)

وثمة عامل اقتصادي آخر يفسر لنا حتمية علاقات الجزيرة العربية بشبه القارة الهندية ، ويتمثل ذلك في ميزة ميزت الحقبة موضوع الدراسة ، وهي هيمنة الملاحة البحرية على حساب التجارة البرية في العالم الآسيوي. فقد أكدت الدراسات المتخصصة أن المواصلات البرية فقدت أهميتها في هذه المرحلة وأصبحت ضئيلة بالمقارنة مع حركة الملاحة الواسعة. (٤١) ولما كانت الجزيرة العربية وشبه القارة الهندية منطقتين بحريتين تسيطران على شرايين الملاحة البحرية ، فمن الطبيعي أن تتضافر أنشطتهما البحرية وأن تصبح العلاقات بينهما حتمية تاريخية تعد انعكاسا لعصر الملاحة البحرية خاصة بعد بناء الأسطول الإسلامي في العصر الأموي.

يتضح مما تقدم أن العلاقات بين الجزيرة العربية وشبه القارة الهندية في العصر الأموي جاءت إفرازا طبيعيا لمجموعة من المعطيات التي وفرتها ظرفية ذلك العصر ، ومن ثم يمكن اعتبارها وليدة حتمية تاريخية وانعكاسا أمينا لمصالح استراتيجية مشتركة ، فكيف بدأت تلك العلاقات في العصر الأموي؟ إن الجواب على ذلك يكمن في الفتوحات الأموية لشبه القارة الهندية ، وهو ما سنتناوله في القسم الموالي .

ثانيا : الفتوحات الأموية لشبه القارة الهندية ودورها في ارتباطها بالجزيرة العربية

قبل تناول إسهامات الأمويين في فتح شبه القارة الهندية التي كانت تمهيدا لقيام علاقات متينة بينها وبين الجزيرة العربية ، لا بد من تسطير الملاحظات الآتية :

١ ـ يمكن اعتبار انتقال الجيش الأموي إلى شبه القارة الهندية وفتحها بداية لمرحلة متميزة من علاقاتها الحضارية مع الجزيرة العربية وتتويجا للمقاربات التي ورد ذكرها في القسم الأول من هذا البحث.

٢ ـ رغم الاختيار العسكري الذي تبنته الدولة الأموية في علاقتها مع شبه القارة الهندية ، فإن هذا الاختيار تحول مع مرور الزمن إلى علاقات حضارية استفاد منها الجانبان معا كما سنرى من خلال عرض النتائج .

٣ ـ إن أوضاع شبه القارة الهندية كانت تستلزم قوة منقذة تحولها نحو منعطف تاريخي إيجابي ؛ ولا غرو فإن استقصاء أوضاع شبه القارة الهندية قبل مجيئ العرب إليها كاف للدلالة على أن الفتح العربي جاء بردا وسلاما على شعوب المنطقة ، وحسبنا أن الضعف كان ينخر الإمبراطورية الهندية منذ القرن الخامس الميلادي بسبب غزوات الهون . وأسفر هذا الضعف عن تفكك أوصال تلك الإمبراطورية التي أصبحت تعيش على التشرذم والانقسام سياسيا ودينيا . (٤٢) ومن المعلوم أن الديانة البوذية كانت قد تراجعت بسبب الاضطهاد الذي مارسه البراهمة والتفرقة الطبقية التي طبقوها ، وحسبنا أنهم شكلوا أقلية استأثرت بزبد الخيرات ، بينما ظل السواد الأعظم من المهمشين والمنبوذين يعيشون تحت وطأة الفقر والبؤس . وبما أن الإسلام يلغي الطبقية ويدعو للعدل والمساواة ، فإن

هذا المناخ السائد كان ملائما للتقارب بين شعوب الهند والشعوب العربية التي جاءت تبشر بهذين المبدأين. وإذا أضفنا إلى ذلك الحرية الدينية التي أقرها الفاتحون في طول شبه القارة الهندية وعرضها خاصة في عهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، أمكن إدراك خيوط هذا التقارب . فمثل هذه الحرية أعطت لأهالي المنطقة انطباعا جيدا عن المسلمين الذين أوفوا بوعودهم باحترام أموال الناس، وإبقائهم على النظم الإدارية التي اعتاد عليها الأهالي، واستخدامهم وإشراكهم في الحكم.(٤٣)

في ضوء هذه الملاحظات يمكن فهم الإيقاع السريع الذي سارت به العلاقات الحضارية بين الجزيرة العربية وبعض المناطق من شبه القارة الهندية ، ونجاح الأمويين في السيطرة على المنطقة المذكورة. إلا أن ثمة عاملا آخر يفسر لنا سهولة اجتياح الجيش الأموي لها ، وتتجلى في ما يمكن أن نطلق عليه المرحلة التمهيدية للفتح والتي دشنت مراحلها الأولى في العصر الراشدي . ذلك أن هذه الفترة شهدت مرحلة جس النبض قبل أن تتحول إلى فتح منظم في العصر الأموي، وكان من نتائجها " تدويخ " المنطقة وتسهيل أمرها للأمويين . ولا غرو فقد بدأت المحاولات الأولى منذ عهد الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب حسبما يذكره المؤرخ البلاذري (٤٤) الذي يؤكد أن هذا الأخير ولى عثمان بن العاص الثقفي ولاية البحرين وعمان سنة ١٥هـ / ٦٣٦ م ، فوجه هذا الأخير أخاه الحكم إلى البحرين، ومضى إلى عمان فأقطع جيشا إلى تانة، وعزم على تنفيذ خطة لفتح الجزء الأسفل من نهر السند، غير أن الخليفة عمر لم يشجع هذه المبادرة لقساوة بلاد الهند .

ولما تسنم عثمان بن عفان سدة الخلافة ، وجه إلى عامله بالعراق أمرا لاختبار أحوال ثغر الهند ، فأرسل إليها هذا الأخير مبعوثا ليستكشف أحوالها وإمكانياتها العسكرية . فلما رجع وصفها لعثمان بقوله : " ماؤها وشل، وثمرها دقل ، ولصها بطل ، إن قل الجيش فيها ضاعوا ، وأن كثروا جاعوا."(٤٥)

وفي عهد الخليفة علي بن أبي طالب خرج القائد الحارث بن مرة سنة ٣٩هـ في حملة عسكرية وصفت بأنها " الفتح الإسلامي العظيم، "(٤٦) وأسفرت عن بعض الغنائم ، لكن العملية انتهت باستشهاد هذا القائد .

ويبدو أن الأمويين سعوا لتجاوز هذا الفتح بصورته السريعة إلى الفتح المنظم المرتكز على الاستقرار في البلاد المفتوحة ، وإن كان ذلك يتطلب مرحلة من الزمن . والملاحظ أن أهالي الجزء الشرقي من الجزيرة العربية لعبوا دورا طلائعيا في هذه الفتوحات ، فمعظم الحملات العسكرية اعتمدت على عرب عمان والبحرين ، وهو أمر يفسر بأنهم كانوا أكثر بلاد عرب الجزيرة معرفة بركوب البحر دون أن نستثني دورهم في الحملات البرية في مكران والسند. وترد في هذا الصدد أسماء بعض القبائل التي كان لها باع طويل في فتوحات الهند منذ عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان ، ونذكر من بينها قبائل بني ناجية والأزد العمانيين وبني عبد القيس وبني تميم.(٤٧) وحسب ما يذكره بعض المؤرخين فإن والي العراق- زياد بن أبيه - عين راشد بن عمر الجديدي على ثغر الهند ، وأن هذا الأخير نظم حملات عسكرية أوغل فيها إلى السند.(٤٨)

وإبان ولاية عبد الله بن سوار على ثغر الهند سنة ٤٥هـ ، تطالعنا المصادر بحاتم بن قبيصة بن المهلب كقائد عماني اعتمد عليه عبد الله بن سوار .(٤٩) وحسب ما يذكره صاحب كتاب *فتح السند* ، فإن ثغر الهند قد أسند بعد استشهاد عبد الله بن سوار إلى سنان بن سلمة الذي عينه زياد بن أبيه ، ثم عزله ليتولى راشد بن عمرو الجديدي أمور ثغر الهند مرة ثانية.(٥٠) ويفهم من خلال المرويات التاريخية أن ثغر الهند ظل يأخذ قسطا وافرا من اهتمامات معاوية بن أبي سفيان ، وأنه كان يحسب كل الحسابات قبل الإقدام على أي خطة عسكرية . فقد استدعى راشد الجديدي إلى مجلسه واستشاره في أمر ثغر الهند ثم طلب من الجنود ضرورة الانضباط إليه والاستماع إلى أوامره.(٥١)

وبهذه الخطة المحكمة انطلق راشد في حملته العسكرية إلى أن وصل إلى جبال البابه فأجبر أهله على دفع الجزية المقررة ، ثم قاد حملة أخرى داخل أرض القيقان وغنم غنائم كثيرة.(٥٢)

وفي السنة الموالية تصدى للخارجين عن السلطة الأموية ، ولكنه لقي حتفه في كمين نصب له أمام جبل المنذر حيث فاجأه جيش مؤلف من خمسين ألف من سكانه.(٥٣)

وبعد استشهاد راشد الجديدي تولى سنان بن سلمة قيادة ثغر الهند للمرة الثانية قبل أن يلقى حتفه ويخلفه المنذر بن الجارود بن بشر سنة ٦١ هـ ليتولى بعده القائد الحكم مواصلة الفتوحات في تلك الأصقاع .(٥٤)

ورغم أن الفتوحات العسكرية في ثغر الهند في عهد معاوية بن أبي سفيان لم تصل إلى مستوى الاستقرار ، فانه نجح في اختراقها حتى أن المؤرخ " جيبون " Gibbon أقر بأن " بلاد الهند كانت ترتعش في أيامه ."(٥٥) ولا غرو فقد كان لقائديه المهلب بن أبي صفرة وعبد الله بن سوار جولات عسكرية موفقة . بيد أن جهود القائدين لم تحقق استقرارا عربيا ببلاد الهند .(٥٦)

ولم يبدأ الفتح المنظم لشبه القارة الهندية إلا في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك الذي أوكل أمر الفتوحات بهذه المنطقة إلى عامله بالعراق الحجاج بن يوسف الثقفي . وقد وجه هذا الأخير عدة حملات عسكرية ، لكنها لم تصل إلى مستوى الرغبة في استقرار المسلمين بتلك الديار ؛(٥٧) لذلك فكر في حملة كبيرة جيدة الإعداد ، أسند قيادتها إلى ابن أخيه محمد بن القاسم الثقفي وذلك سنة ٩٢هـ . وتجنبا لأي هزيمة محتملة أو انتصار سريع لا يسعى إلى توطيد الحكم الأموي في شبه القارة الهندية ، أولى الحجاج بن يوسف كل اهتمامه بهذا الجيش من ناحية الإعداد الجيد والتسليح القوي ، فزوده بكل المعدات والمؤن، بل حتى الخيوط والقطن المحلوج المنقوع في الخل .(٥٨) ولعل هذا الاستعداد المكثف قبل الإقدام على خطوة في مستوى الفتح المنظم يدحض ما أوردته بعض المصادر من أسباب ساذجة كانت وراء توجيه الحجاج بن يوسف هذه الحملة ، وتتمثل في أن امرأة مسلمة وقعت في سبي قراصنة من الهنود الذين حاولوا اغتصابها ، فاستغاثت بالحجاج الذي بعث من معسكره بشيراز القائد محمد بن

القاسم الثقفي. (٥٩) فحتى لو صحت هذه الرواية فإنها لا تعدو أن تكون مجرد سبب ثانوي عجّل بالحدث الذي كان مبرمجا ومعدا له سلفا.

على كل حال تجمعت قوات الأمويين في شيراز ومن هناك انطلقت في حشود كبيرة نحو مكران ثم إلى مدينة الديبل . وحسب المصادر فإن هذه المدينة كانت قد استعصت فيما قبل على الأمويين ، ذلك أن قائدا من أزد عمان يدعى بديل بن طهفة البجلي كان قد بعثه الحجاج بن يوسف سنة ٩٢ هـ لفتحها ، لكن حملته انتهت بمصرعه. (٦٠)

وأثناء الزحف انضم إلى الجيش الأموي العديد من الشعوب الهندية المعروفة بالزط والتي كانت تعاني من ويلات الحكومة البرهمية ، وهذا ما يؤكد أثر العامل التاريخي الاجتماعي في تسهيل الفتوحات الأموية ، وهو ما أبرزناه سلفا .

كانت المعركة الحاسمة مع الملك داهر ملك السند ، وكانت معركة ضارية استخدم فيها الجيش الأموي أسلحة قوية من بينها منجنيق يدعى العروس كان يديره خمسمائة جندي ، وأسفرت المعركة عن انتصار بيّن للمسلمين الذين استولوا على مدينة الديبل .(٦١) ويخبرنا البلاذري (٦٢) أن محمد بن القاسم اغتنم فرصة انتصاراته ليبني مسجدا بالمدائن التي فتحها. ورغم هذا الانتصار المظفر ، فإن الجو لم يصف للأمويين ، ذلك أن داهر لم يستسلم ، بل اتجه إلى المناطق الداخلية ليعيد ترتيب أموره و ينظم صفوفه من جديد استعدادا لمقاومة النفوذ الأموي ، فأعد قوة عسكرية كبيرة تجمعت في شرق مصب السند ، اعتقادا من الملك داهر أن النهر يعرقل عبور المسلمين له ، غير أن هذا التوقع فشل إذ نجح محمد بن القاسم في العبور مع جيشه بواسطة الزوارق الحربية.ولما أحس داهرا بدنو قوات الأمويين ، حاول أن يتحصن بحصن الروم ، لكن الجيش الأموي اقتحم الحصن بواسطة الحيلة والمباغتة ، مما زرع الذعر والهلع في جيش داهر.(٦٣) ورغم أن هذا الجيش كان يعتمد على الفيلة كقوة حربية مؤثرة ، فإنه انهزم تحت ضربات محمد بن القاسم ، وتمكن من استئصال شأفة الملك داهر الذي قتل على يد محارب عربي من قبيلة بني كلاب حسب رواية المدائني ، ويحدد ابن الكلبي اسمه فيذكره باسم القاسم بن ثعلبة بن عبد الله ابن حصن الطائي ، (٦٤) ونجح القائد الأموي بعد ذلك في الاستيلاء على برهماناد ، ثم تقدم صوب الشمال يستولي على المناطق الواصلة بين هذه المدينة والملتان إلى أن تمكن من الاستيلاء عليها عنوة. (٦٥)

كان لسقوط مدينة الملتان أهمية كبيرة في مشروع الفتوحات الأموية ببلاد الهند ، ذلك أن هذه المدينة كان لها قيمة دينية وروحية هامة ، إذ كانت توجد بها معابد الهنود وأصنامهم ، (٦٦) وكانت تقام بها الطقوس الدينية ، فكان استيلاء الأمويين عليها ضربة قاصمة لأعدائهم. ومما رفع من وتيرة نجاح الأمويين ، ترحيب الشعوب المفتوحة بهم ترحيبا منقطع النظير إذ أقبلوا على محمد بن القاسم يدقون الأجراس ويقرعون الطبول ويرقصون رقصاتهم الشعبية تعبيرا عن ابتهاجهم بمقدمه. (٦٧)

بعد ذلك أخذ القائد الأموي محمد بن القاسم يخطط للاستيلاء على مملكة قنوج التي كانت تعتبر أكبر إمارات الهند . غير أن المشروع الأموي عرف انكفاء وتراجعا في بلاد الهند بسبب أحداث لعبت دورا سلبيا فيه ، فقد توفي الحجاج بن يوسف سنة ٩٥ هـ وأعقبه وفاة الخليفة الوليد بن عبد الملك وخلافة أخيه سليمان له . وكان هذا الأخير معارضا لسياسة الحجاج فعزل كل المقربين إليه بما في ذلك محمد بن القاسم ، بل ألقى عليه القبض وزج به في السجن ، وبقي هناك إلى أن اخترمته المنية.(٦٨)

إن المؤرخ المنصف لا يمكن إلا أن يعتبر هذا السلوك مضرا بالعلاقات العربية الهندية من جهة ، وخسارة للعرب المسلمين من جهة أخرى ، ذلك أن القوى المتمردة في هذه البلاد خلعت طاعتها للأمويين ، مما أدى إلى تراجع وتيرة علاقات الجزيرة العربية مع بلاد الهند ، واكتفى الأمويون بالمحافظة على بعض الممتلكات التي بقيت لهم هناك.(٦٩)

وتذكر المراجع أن الأمويين قاموا بمحاولات عسكرية محتشمة إذ بعثت الخلافة الأموية القائد حبيب بن مهلب بن أبي صفرة مرة أخرى لثغر الهند بعد مقتل واليها يزيد بن أبي كبشة.(٧٠) والراجح أن هذا القائد لم يحقق فتوحات تذكر لقصر مدة ولايته التي لم تتجاوز سنتين ، فقد تم عزله وولي مكانه قائد آخر.(٧١)

وإبان خلافة عمر بن عبد العزيز(٩٩ - ١٠١ هـ)، عادت العلاقة بين جزيرة العرب وبلاد الهند إلى النمو ، ذلك أن هذا الخليفة الورع دشن مرحلة من سياسة التسامح مع الأهالي من غير العرب ، ولم يعوّل على استعمال القوة ، بل أرسل كتبا إلى أمراء الهند يدعوهم بالحسنى والموعظة . وقد أثمرت هذه السياسة ، فأسلم حليشة بن داهر وغيره من الأمراء الهنود الذين تسموا بأسماء عربية.(٧٢)

وحسبما يستشف من المصادر، فإن الوجود الأموي ببلاد الهند عرف انحسارا واضحا في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥ هـ) . إذ ارتد في عهده عدد من أهالي الهند عن الإسلام.(٧٣) وعندما عين الحكم بن عوانة الكلبي على ثغر الهند ، بنى وراء البحيرة مما يلي الثغر مدينة أطلق عليها اسم " المحفوظة " لتكون قاعدة خلفية للمسلمين المستقرين هناك.(٧٤)

ومن خلال هذا العرض الموجز للعلاقات العسكرية بين الجزيرة العربية وبلاد الهند في العصر الأموي يتضح ما يلي :

١ - لم تعرف هذه العلاقات منحنى تصاعديا وإنما تميز هذا المنحنى بالتغير ، وكان في أعلى قمته إبان ولاية محمد بن القاسم الثقفي .

٢ - رغم أن الوجود الأموي ببلاد الهند كان يتعرض أحيانا لبعض الهزات العنيفة ، فإنه لم يتراجع نهائيا .

٣ - كانت فترة حكم عمر بن عبد العزيز مرحلة متميزة من الصلات الحضارية بين الجزيرة العربية و بلاد الهند ، إذ كان يحكمها طابع التسامح والروح الإسلامية بعيدا عن كل نفوذ أو هيمنة .

٤ ـ وجدت بعض المثبطات التي كانت تعرقل الفتوحات في بلاد الهند خلال العصر الأموي نذكر من بينها :

ـ الثورات ضد الحكم الأموي و المتمثلة في ثورات الخوارج والشيعة والزبيريين والموالي ، مما أضعف الجبهة الداخلية طيلة العصر الأموي ، وكلما كانت هذه الجبهة ضعيفة كلما انعكس ذلك سلبا على الفتوحات .

ـ تبني الفتوحات من طرف بعض البيوتات بمعزل عن الحكم الأموي ، ففي ما بين سنتي ٦٥ و ٧٨ هـ وهي الفترة التي شهدت ذروة الصراعات الداخلية ، ظهرت في منطقة ثغر الهند أسرة العلافيين (نسبة إلى معاوية ومحمد بن الحارث من بني علاف)، [٧٥] التي نجحت في السيطرة على ثغر الهند حوالي عقد من الزمن وإن كنا لا نعرف عنها الشيء الكثير نظرا لصمت المصادر عن ذكر أخبارها ، وكل ما نعرفه هو أن الحجاج بن يوسف وجه محمد بن هارون النميري الذي نجح في القضاء عليهم. [٧٦] فلو تضافرت جهود الطرفين لأدى ذلك إلى مزيد من الفتوحات في بلاد الهند.

ـ نكبة محمد بن القاسم الثقفي التي تعتبر ضربة موجعة للفتوحات في تلك الديار الهندية ، إذ أن هذا الشاب المحنك كان قد خبر المعارك فيها ، ولو قدر له الاستمرار في الفتوحات لأسدى خدمة لا تقدر بالنسبة لطرفي العلاقة معا .

ومهما كان الأمر، ورغم أن الفتوحات كانت بهذا الحجم المتواضع ، إلا أنها شكلت الحلقة الرئيسة لارتباط شبه الجزيرة العربية ببلاد الهند حضاريا . ولا شك أن البحث عن النتائج المتمخضة عن الفتوحات تؤكد بداية ولادة صلات حضارية بين الطرفين ، وهو ما سنعالجه الآن .

ثالثا : نتائج الفتوحات الأموية على العلاقات الحضارية بين الجزيرة العربية وبلاد الهند

إذا كان من الصعب رصد النتائج المتمخضة عن العلاقات التاريخية التي نشأت بين الجزيرة العربية وبلاد الهند طيلة العصر الأموي نظرا لقصر مدة الحكم الأموي وعدم ظهور النتائج الحضارية إلى غاية القرون اللاحقة من حكم العباسيين ، فإن ذلك لا يحول دون تسطير بعض النتائج التي بدأت إرهاصاتها الأولى تتشكل لتكتمل في العصور اللاحقة .

على المستوى السياسي أصبحت بعض المناطق من شبه القارة الهندية مرتبطة سياسيا بالدولة الأموية ، وأصبح التقارب بين الجانبين أكثر وضوحا من الفترات السابقة ، وفي هذا السياق أورد المؤرخ علي بن حامد الكوفي خبر السفينة الكبيرة التي بعثها ملك سرانديب (سيلان) إلى الحجاج بن يوسف الثقفي محملة بالتحف والهدايا والياقوت والجواهر الثمينة والعبيد والغلمان ، فضلا عن الهدايا التي بعثها للخلافة الأموية تعبيرا عن العلاقات الودية بين الجانبين. [٧٧] كما صار الأمويون يعينون ولاتهم على بعض المقاطعات الهندية باعتبارها من المقاطعات الإسلامية . ولا شك أن الارتباط بين المنطقتين زاد الدولة الأموية قوة وهيبة ، ووسع رقعة خريطتها السياسية .

أما على المستوى الديني فقد تمخض عـن الفتوحـات الأمويـة انتشـار الإسـلام في شبـه القـارة الهنديـة. وقد سبق القول إن حليشة بن داهر وغيره من زعماء الهنود اعتنقوا الإسلام عن طواعيـة في عـهد عمر بـن عبـد العزيـز. وكان لحركة بناء المساجد في أهم المدن الهندية المفتوحة أثر في كثرة أعداد الداخلين في الديانة الإسـلامية ، خاصـة في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي رفع الجزية على كل من أسلم من الهنود وغيرهم .

وعلى الصعيد الاقتصادي ، لا يخامرنـا شك في أن مداخيل الدولـة الأمويـة نمـت بفضـل مـوارد المنـاطق الهندية ، فضلا عن الضرائب والجزية التي كان يؤديها غير المسلمين ، حتى أن الحجاج بن يوسف لما بعث إليه بـرأس الملك داهرا مع العبيد والسبايا والأموال خرّ ساجدا شاكرا لله قائلا : " بهذا وصلت إلى جميع خزائن وأموال وملك الدنيا ." (٧٨) كما حدث تكامل بين موارد اقتصاد الجزيرة العربية وشبه القـارة الهنديـة ، وكـان للغنـائم الـتي حصـل عليها الأمويون و خاصة الذهب أثر إيجابي في تنمية بيت المال الأموي . وفي هـذا الصـدد ذكـر البـلاذري أن الحجـاج ابن يوسف وجد أن مداخيل فتوحات محمد بن القاسم الثقفي درت عليه ضعف مصاريف النفقات التي أنفقها علـى الجيش وتجهيزاته. (٧٩) وفي نفس المنحى يزودنا ابن خلدون (٨٠) برواية حول الغنائم التي حصـل عليـها الأمويـون في مدينة الملتان (كراتشي حاليا) ، فيذكر أن الفاتحين وجـدوا بـها كميـات كبـيرة مـن الذهـب في بيـت طولـه عشـرة أذرع وعرضه ثمانية .

وبفتح الهند انفتحت أسواق ومراكز تجارية جديدة ، وانفتح الطريق أمام الهجـرة الجماعيـة للتجـار العـرب نحو السواحل الهندية . ومع مضي الزمن ، أخذت البضـائع والسـلع تحـل محـل القـوة والسـيف ، وأخـذت المنطقتـان تتبادلان وفود التجار ، حتى أن عمان أصبحت " مرسى السفن من السند والهند ، " (٨١) بينما أصبحـت مدينـة الديبـل منطقة جذب للتجار العمانيين وغيرهم من العرب بكيفيـة منتظمـة ، (٨٢) فضـلا عمّـا كـانت تمثلـه الأبلـة وبغـداد مـن محطات رئيسـة في طريـق التجـار اليـهود الرذانيـة الذيـن كـانوا يعـبرون مـن هـذه المنـاطق الخليجيـة نحـو الهنـد والشـرق الأقصى. (٨٣)

ولا تعوزنـا الدلائـل الأخرى عـن توافـد التجـار العـرب الخليجيـين علـى شـبه القـارة الهنديـة ، فعندمـا زار المسعودي مدينة صيمور سنة ٣٠٤هـ ، التقى بمجموعة من التجار فعدّهم بأسمائهم ، (٨٤) ورغم أن هذا النـص يعـود إلى العصر العباسي ، فلا شك أن الجذور الأولى لهذه الصلات التجارية ترجـع إلى العصـر الأمـوي . وكـانت مدينـة جاليور معروفة لدى التجار العرب الذين يمرون عبرها من كنبابية إلى دلهي. (٨٥)

ولا يخامرنا شك في أن المصالح التجارية بين المنطقتين أفرزت مناخا مـن التسـامح والتعـايش السـلمي بينـهما ، فالتجـار العـرب استقروا في منطقـة السـند في جـو مـن الأمـن ، وامتزجـوا مـع الأهـالي ، وسـمـح لـهم ببنـاء المسـاجد وممارسة الشعائر الدينية في جو من الحرية. (٨٦)

أما بخصوص النتائج الإجتماعية المترتبة على علاقة الجزيرة العربية بثغر الهند في العصر الأموي فتتجلى بصورة أوضح لأن الفتوحات الأموية لم تكن عسكرية الطابع فحسب . فرغم بعض التجاوزات ، فإنها كانت فتحا حضاريا ؛ ولا غرو فإن الفاتح الكبير محمد بن القاسم " كان يراعي آداب وقواعد البلاد ، فدانت له الممالك جميعا وقهر الأعداء واستمال الرعية وهذب أخلاق العامة ، ولم يتعرض لأصحاب المصالح والعمال."[(٨٧)] وتروي المصادر كيف كان يعطي الأمان للأهالي وكيف كان يحتفظ للبراهمة بمناصب الولايات والحكم،[(٨٨)] مما جعل معظم الأهالي يطمئنون للفاتحين الجدد ، بل أن بعض قبائل سمه استقبلت محمد بن القاسم بالرقصات والأهازيج الشعبية تعبيرا عن فرحها بمقدمه كمحرر.[(٨٩)] وقد ترجم هذا الانصهار الاجتماعي في عملية الزواج التي كانت تتم بين العرب والهنديات، حسبنا دليلا على ذلك زواج أحد أفراد حاشية الخليفة الأموي الوليد ويدعى كعب الراسبي بإحدى بنات أخت ملك الهند داهرا ،[(٩٠)] فضلا عن اتخاذ الجواري الهنديات اللاتي أصبحن أمهات أولاد.

من ناحية ثانية ، كانت الهجرات المتبادلة إحدى قنوات هذا الاندماج الاجتماعي ، حيث أصبحت كل من شبه القارة الهندية وبلاد الجزيرة العربية موطنين لاستقرار العرب والهنود . ولا غرو فقد أبحر العديد من عرب الجزيرة نحو شبه القارة الهندية واستوطنوا مع الأهالي وعاشوا بين ظهرانيهم. وفي هذا السياق، يذكر ابن المجاور [(٩١)] عن مدينة المنصورة بالسند أن " جميع سكانها حضارم انتقلوا من بلادهم وسكنوا بها." كما أن قبيلة بني هاشم التي أجلاها الحجاج بن يوسف اختارت غرب الهند موطنا ، في حين استوطن بعضها بساحل بومباي.[(٩٢)]

ويبدو أن المناطق الأخرى من شبه القارة الهندية لم تخل من وجود الجاليات من سكان الجزيرة العربية . مصداق ذلك ما شاهده المسعودي [(٩٣)] ووقف عليه بالعيان حين زار الهند فذكر أن بها " من المسلمين نحو عشرة آلاف قاطنين ، بياسرة وسيرافيين وعمانيين وبصريين وبغداديين ، وغيرهم من سائر الأمصار ممن قد تأهل وقطن تلك البلاد." وهو نص رغم أنه يرجع إلى فترة العباسيين ، فإن الوضع ما كان ليتحول و يصبح على هذه الشاكلة لو لم توجد الإرهاصات الأولية في عصر الأمويين . وقد تمخض عن الزواج بين عرب الجزيرة والهنديات ظهور طائفة تسمى البياسرة وهم المولدون من آباء عرب وأمهات هنديات.[(٩٤)]

وعلى نفس النهج ، أبحر سكان شبه القارة الهندية نحو منطقة الخليج العربي وكونوا بها جاليات هامة اشتغلت في صناعة السفن،[(٩٥)] بل أن بعض ذوي الخبرة الإدارية منهم أفادوا الدولة الأموية . وفي هذا الصدد يذكر البلاذري [(٩٦)] أن أربعين أو أربعمائة من السياجبة كانوا يشتغلون في بيت مال البصرة خلال عهد خلافة علي بن أبي طالب، ولا شك أنهم استمروا في عهد معاوية بن أبي سفيان الذي حكم بعده مباشرة، وربما في عهد خلفائه لأنه من غير المعقول أن يحدث انقطاع ظاهرة مثل هذه بشكل مفاجئ . ونذكر من ضمن النتائج الاجتماعية الأخرى كذلك انتشار أعداد كثيرة من الرقيق الهندي بالجزيرة العربية بفضل السبايا التي كانت تعقب كل غزوة.[(٩٦)]

ونظرا لكثافة الجالية العربية في شبه القارة الهندية ، فقد أسست لنفسها نظاما خاصا يعرف بالهزمة وتعني " رآسة المسلمين يتولاها رجل منهم عظيم من رؤسائهم تكون أحكامهم مصروفه إليه."(٩٨) ولعلّ هذا النظام يعكس ذروة التعايش والعلاقات الحسنة بين الجانبين .

ومن البديهي أن تتمخض عن هذا التعايش بين شعوب المنطقتين عادات وتقاليد اجتماعية مشتركة . ونسوق في هذا الصدد ما ذكر عن تأثر مدينة قنوج الهندية بأنواع الأطعمة العربية ،(٩٩) كذا تأثر أزياء أهل المنصورة بالزي العراقي ، (١٠٠) وعادة الهنود في اتخاذ أسماء عربية.(١٠١)

نستنتج من ذلك أن توافد الجاليات من كلتا المنطقتين وزواجهما واختلاطهما أدى إلى امتزاج الدم العربي بالهندي ، مما جسد معلمة بارزة من معالم علاقات التعايش بين الطرفين .

يضاف إلى نتائج الفتوحات توطيد الصلات العلمية بين الجزيرة العربية وشبه القارة الهندية ، إذ لم يتوان العلماء المسلمون عن تبليغ رسالتهم الثقافية إلى شعوب تلك المنطقة . وحسبنا أنهم كانوا يتخذون من تعليم الدين حرفة لهم واحتسابا لله تعالى.(١٠٢) وقد لاحظ الرحالة والجغرافيون كثرة العلماء العرب ببلاد الهند ؛ وهذا ما يفسر قول أحدهم (١٠٣) عن مدينة قنوج الهندية : " وبها علماء أجلة ." و تجلت جهود هؤلاء العلماء في اهتمامهم وحرصهم على تشييد المساجد واتخاذها منابر لنشر العلم والمعرفة . وفي ذات الوقت ، كان سلوكهم الأخلاقي مدعاة لدخول عدد من شعوب القارة الهندية في الإسلام ، سواء من الأهالي المعتنقين للبوذية أو من البراهمة أنفسهم . ولعل ظاهرة الاعتناق الجماعي للإسلام من قبل هؤلاء يعكس قوة الانصهار الديني والثقافي.(١٠٤)

وتمخض عن التلاقح الثقافي بين المنطقتين امتزاج لغوي عبّر عنه أحد الجغرافيين (١٠٥) بقوله وهو يتحدث عن أهل مدينة الديبل في منطقة السند : " كلامهم سندي عربي." ومما يؤكد انتشار اللغة العربية في هذه المدينة أن مدير سجن قلعتها تحول بعد فتحها من طرف محمد بن القاسم إلى مشرف على شؤونها الاقتصادية ، ثم تم تعيينه مترجما لرئيس الوفد الذي أرسله محمد بن القاسم إلى داهر ملك السند ، وهو ما يعني أنه كان يحسن العربية . ومن المحتمل أن يكون قد تعلمها من العرب الذين أقاموا في سجنه بالقلعة المذكورة.(١٠٦) والجدير بالإشارة أن الأرقام الهندية انتقلت إلي الجزيرة العربية بفعل الانصهار الحضاري ، حيث لا تزال تستخدم حتى الوقت الراهن.(١٠٧)

ولا تفوتنا الإشارة كذلك إلى بعض التأثيرات العمرانية ، فقد كان الحضور الأموي مناسبة لاستبحار العمران في بلاد الهند إذ شيدت بعض المدن واتخذت أسماء عربية نذكر من بينها مدينتي المحفوظة ،(١٠٨) والمنصورة التي سميت نسبة إلى " منصور بن جمهور عامل بني أمية." (١٠٩) كما نمت حركة بناء المساجد التي كانت حركة مصاحبة لعمليات الفتح ، وفي هذا الصدد ذكر أحد المؤرخين أن محمد بن القاسم بعد أن أعطى الأمان لأهالي الملتان "بنى المساجد والمنارات وعمّر المدينة."(١١٠)

من حصاد ما تقدم نصل إلى القول إن العلاقات الحضارية بين الجزيرة العربية وشبه القارة الهندية علاقة متجذرة في القدم ، إلا أن الإسلام زادها رسوخا عندما طالها الفتح الأموي. وقد شملت كل الجوانب لأنها لم تكن عدوانية الطابع ، بل اتسمت بروح التعايش والفتح الحضاري ، فكانت خيرا على المنطقتين معا ، وأثرت إيجاباً على صيرورتهما التاريخية. وقد عبّر البلاذري تعبيرا رائعا عن الانصهار الذي وقع بين الطرفين بقوله وهو بصدد الحديث عن سجن محمد بن القاسم الثقفي وموقف أهل الهند منه : " فبكى أهل الهند على محمد وصوروه بالكيرج ، "(١١١) وهو نص يحمل أبعادا ودلالات عميقة تعكس بالملموس ما كانت تختزنه الذاكرة الشعبية الهندية من شحنة المحبة للمسلمين وقائدهم العربي الشهير الذي نحت اسمه في مسار التاريخ الهندي .

التعليقات

(١) محمد فرزات ، "العلاقات الحضارية بين بلاد الخليج العربي وشبه القارة الهندية حتى الألف الأول قبل الميلاد ،" *مجلة دراسات تاريخية* ، ٧٣١ .

(٢) فرزات ، "العلاقات ،" ٧٤.

(٣) فرزات ، "العلاقات ،" ٧٤.

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور وعوض محمد خليفات ، *عمان والحضارة الإسلامية* ، ط٩ (مسقط ، ١٩٩٤)، ١٢ .

(٥) فرزات ، "العلاقات ،" ٧٦.

(٦) فرزات ، "العلاقات ،" ٧٦.

(٧) C.J. Jadd, “Seals of Ancient Indian Style,” *PBA*, 8, 191-210.
اقتباسا من : فرزات ، "العلاقات ،" ٧٦، ٧٧ .

(٨) الشيخلي والآلوسي ، *تاريخ الإسلام في إفريقيا وجنوب شرق آسيا* (بغداد ، ١٩٨٩م)، ١٦١.

(٩) يذكر عن مدينة الديبل أنه كان بها صنم كبير يعبده الأهالي وقد حطمه الفاتحون العرب ، انظر : *تاريخ ابن خلدون* (بيروت ، ١٩٧٩)، ٣ : ٦٠ .

(١٠) *فتوح البلدان* (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٧٨م)، ٤٢٠ .

(١١) محمد كريم إبراهيم ، العلاقات التجارية بين عدن والهند خلال القرنين السادس والسابع الهجريين ١٢|١٣م ،" *مجلة المؤرخ العربي* ، ٣٣ (١٩٨٧م)، ٢٢٥ .

(١٢) عاشور وخليفات ، *عمان*، ٥ .

(١٣) ابن حوقل ، *صورة الأرض* (بيروت : مكتبة دار الحياة ، ١٩٧٩م) ، ٢٧٧ .

(١٤) ابن حوقل ، *صورة الأرض* ، ٢٧٨ .

(١٥) ابن حوقل ، *صورة الأرض* ، ٢٧٩-٢٨٠.

(١٦) الإصطخري ، *المسالك والممالك* (ليدن : بريل ، ١٩٦٧م) ، ٦٥ .

(١٧) ابن الفقيه ، *مختصر كتاب البلدان* (ليدن : بريل ، ١٩٦٧ م) ٢٣٠ .

(١٨) ابن خرداذبه ، *المسالك والممالك* ، تحقيق محمد مخزوم (بيروت: دار احياء التراث العربي ، ١٩٨٨م)، ٢٦ ، ١٣١ . والقسط بضم القاف : عود هندي عربي ، مدر نافع للكبد والمغص والزكام ؛ أما القنا فتطلق على القصب.

(١٩) ابن خرداذبه، *المسالك والممالك*، ٦٧ . والصندل شجر مشهور بخشبه المتين . والماكافور والجوزبوا هي شجرة من فصيلة جوز الطيب لها بزوز وأغلفة والقاقلة هي الهال . أما الكبابة فهي ثمار نبات من الفصيلة الفلفلية .

(٢٠) الندوي ، *تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية* (بيروت ، د.ت.) ، ٤٨ .

(٢١) القلقشندي ، *صبح الأعشى* ، تحقيق نبيل خالد الخطيب (بيروت ، ١٩٨٧م)، ٥ :١٤.

(٢٢) البكري ، *جزيرة العرب ، من كتاب الممالك والمسالك* ، تحقيق عبد الله يوسف الغنيم ، ط١ (الكويت: ذات السلاسل، ١٩٧٧م)، ٣٤-٣٥.

(٢٣) القلقشندي، *صبح الأعشى* ، ٥ :٥٣ .

(٢٤) القلقشندي، *صبح الأعشى*، ٥ : ٥٨ ؛ وينقل روايته عن الجغرافي العمري .

(٢٥) القلقشندي، *صبح الأعشى*، ٥ : ٥٨.

(٢٦) المقدسي، *أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم* (ليدن: بريل، ١٩٦٧م)، ٤٧٤ .

(٢٧) القلقشندي، *صبح الأعشى*، ٥٧.

(٢٨) الإدريسي، *نزهة المشتاق في اختراق الآفاق* ، منشورات المعهد الجامعي الشرقي بنابولي ، ط٢ (نابولي- روما ، د. ت.)، ٢ : ١٧٧ ؛ المقدسي ، *أحسن التقاسيم*؛ ياقوت الحموي ، *معجم البلدان* (بيروت ، د.ت.) ، ٥ : ٢٢٧.

(٢٩) ابن خرداذبة ، *المسالك والممالك*، ٥٦.

(٣٠) المن : كيل قديم وهو وزن ٢٥٧ درهما وسبع درهما ، و بالمثاقيل ١٨٠ مثقالا . انظر : أحمد قدامة ؛ *قاموس الغذاء* ، عن محقق كتاب ابن خرداذبة ، *المسالك والممالك*، هامش ٢ ، ٥٦ .

(٣١) المثقال : عيار وزن بحساب الدرهم: " درهم وثلاثة أسباع الدرهم ". وبحساب الشعيرة ٩٩ شعيرة . وفي اصطلاح صاغة الحلي: "درهم ونصف الدرهم ". انظر : *قاموس الغذاء* ، ٧٧ ، عن المحقق ، ٥٦ ، هامش ٣ .

(٣٢) *كتاب الجغرافيا أو جغرافية ابن سعيد* ، تحقيق إسماعيل العربي (بيروت، ١٩٧م)، ١٠٧ .

(٣٣) انظر : العربي ، مقدمة التحقيق *لجغرافية ابن سعيد* ، ٣٠ .

(٣٤) ابن حوقل ، *صورة الأرض*، ٢٧٩ .

(٣٥) الإصطخري ، *المسالك والممالك*، ١٧٥ .

(٣٦) الحميري ، *الروض المعطار* ، تحقيق إحسان عباس، ط٢ (بيروت، ١٩٨٤م) ، ٢٥٠ .

(٣٧) *كتاب الجغرافيا* ، ٢٥٠ .

(٣٨) *كتاب الجغرافيا* ، ٢٥٠ .

(٣٩) ياقوت، *معجم البلدان* ، ٤ : ١٥٠ .

(٤٠) ابن خرداذبه، *المسالك والممالك*، ١٣١ .

(٤١) هايد ، *تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى* (القاهرة، ١٩٨٥ م)، ٥٣.

(٤٢) عن التشرذم الديني يذكر الحميري أن لأهل الهند اثنتين وأربعين ملة . *انظر : الروض المعطار في خبر الأقطار*، تحقيق احسان عباس (بيروت، ١٩٨٤م) ، ٥٩٧ ؛ وعن التشرذم السياسي انظر : عبد الشافي عبد اللطيف ، *العالم الإسلامي في العصر الأموي: دراسة سياسية* (د.م: دار الوفا للطباعة، ١٩٨٤م) .

(٤٣) عبد اللطيف، *العالم الإسلامي*، ٤٤٩ - ٤٥٠ .

(٤٤) البلاذري، *فتوح البلدان*، ٤٢٠ ؛ عبد المنعم ماجد، *التاريخ السياسي للدولة العربية : عصر الخلفاء الأمويين* (القاهرة: دار الطباعة الحديثة، ١٩٨٢ م)، ٢٣٣ .

(٤٥) البلاذري، *فتوح البلدان*، ٤٢١.

(٤٦) علي بن حامد الكوفي، *فتح السند*، تحقيق سهيل زكار، ط١ (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٢ م)، ٧٧ .

(٤٧) S.S. Al-Humaidi, "Makran and Baluchistan from the Early Islamic Conquests down to the Mongol Invasion," unpublished PhD. Thesis, Victoria University of Manchester, 1988, 3.

(٤٨) الذهبي، *العبر في خبر من غبر*، تحقيق صلاح الدين المنجد، ط٢ (الكويت، ١٩٨٤ م)، ١ :٥١ ؛ خليفة بن خياط، *تاريخ خليفة بن خياط*، تحقيق أكرم ضياء العمري، ط٢ (الرياض، ١٩٨٥م)، ٢٠٥ .

(٤٩) قاضي المباركبوري، *العقد الثمين في فتوح الهند ومن ورد فيها من الصحابة والتابعين*، (القاهرة: دار الأنصار، ١٣٩٩ هـ)، ١٠٥-١٠٦ .

(٥٠) الكوفي، *فتح السند*، ٨٠ - ٨١ .

(٥١) خليفة ابن خياط، *تاريخ*، ٢١٢ ؛ اليعقوبي، *تاريخ اليعقوبي* (بيروت: ١٩٨٠م)، ٢ : ٢٧٨.

(٥٢) الكوفي، *فتح السند*، ٨١ .

(٥٣) الكوفي، *فتح السند*، ٨١ .

(٥٤) الكوفي، *فتح السند*، ٨٢-٨٤ .

(٥٥) Gibbon, *The Decline and Fall of the Roman Empire* (London, 1950), 5: 388.

(٥٦) الشيخلي والآلوسي، *تاريخ الإسلام*، ١٦٣ .

(٥٧) حسن إبراهيم حسن، *تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي*، ط٧ (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٤م)، ١ : ٣٠٧ .

(٥٨) الكوفي، *فتح السند*، ١٤٧ ؛ Lane Poole, *Medieval India under Mohamedan Rule* (New York, 1962), 8 .

(٥٩) الحميري، *الروض المعطاء*، ٢٥٠ ؛ الكوفي، *فتح السند*، ٩٠.

(٦٠) البلاذري، *فتوح البلدان*، ٤٢٣ .

(٦١) عصام الدين الفقي، *بلاد الهند في العصر الإسلامي* (القاهرة: عالم الكتب، ١٩٨٠م)، ٩ .

(٦٢) البلاذري، *فتوح البلدان*، ٤٢٧ .

(٦٣) انظر تفاصيل المعركة ضد الملك داهر عند الكوفي، *فتح السند*، ١٦٣ ومابعدها .

(٦٤) وردت الروايتان معا عند البلاذري، *فتوح البلدان*، ٤٢٦ ؛ انظر كذلك : حسن، *تاريخ الإسلام*، ٢٥٢ .

(٦٥) البلاذري، *فتوح البلدان*، ٤٢٥ .

(٦٦) يصف ياقوت الحموي الصنم الذي كان يعبد في الملتان وصفا دقيقا . انظر: *معجم البلدان*، ٥ : ٢٢٧

(٦٧) Lane Poole, *Medieval India*, 10. - الكوفي، *فتح السند*، ٢١١ .

(٦٨) البلاذري، *فتوح البلدان*، ٤٢٨.

(٦٩) الفقي، *بلاد الهند*، ١١ .

(٧٠) اليعقوبي، *تاريخ*، ٢ : ٢٩٦ .

(٧١) خليفة بن خياط، *تاريخ*، ٣٢٢ .

(٧٢) حسن، *تاريخ الإسلام*، ٣٠٨ .

(٧٣) حسن، *تاريخ الإسلام*، ٣٠٨.

(٧٤) البلاذري ، *فتوح البلدان*، ٤٣٠ - ٤٣١ .

(٧٥) الكوفي ، *فتح السند*، ١٣٨ ، ١٥٧ .

(٧٦) AL – Humaidi , "*Makran*," 263 - 64 .

(٧٧) الكوفي ، *فتح السند*، ٨٨ .

(٧٨) الكوفي ، *فتح السند*، ٨٨ ، ١٨٧ ، ويذكر نصوصا أخرى حول الأموال التي كان يبعثها القائد محمد بن القاسم إلى الحجاج بن يوسف . انظر : الكوفي، *فتح السند*، ٢٣٣ .

(٧٩) البلاذري ، *فتوح البلدان* ، ٤٢٧ .

(٨٠) *تاريخ ابن خلدون* ، ٦١ .

(٨١) القلقشندي ، *صبح الأعشى*، ٥٣ .

(٨٢) الحميري ، *الروض المعطار*، ٢٥٠ .

(٨٣) ابن خرداذبه ، *المسالك والممالك*، ١٣١ .

(٨٤) المسعودي، *مروج الذهب* (القاهرة، ١٩٦٤ م)، ١: ٢١٣ .

(٨٥) ابن سعيد ، *كتاب الجغرافيا*، ١٢٠ .

(٨٦) يذكر أن كنبابية من بلاد الجزرات الهندية "مشهورة يقصدها تجار الهند ، وفيها المسلمون ولهم فيها مساجد." انظر : *كتاب الجغرافيا* ، ١٢٠ .

(٨٧) الكوفي ، *فتح السند* ، ١٩١ .

(٨٨) الكوفي ، *فتح السند* ، ١٩٩-٢٠٠ .

(٨٩) الكوفي ، *فتح السند* ، ٢١١ .

(٩٠) الكوفي ، *فتح السند* ، ١٨٤ ، ويورد رواية أخرى يذكر فيها أن الذي تزوجها هو علي بن عبد الله بن العباس .

(٩١) *صفة بلاد اليمن* ، نشرها وصححها أوسكر لوففرين ، ط٢ (منشورات المدينة، ١٩٨٦م) ، ٢٦٥.

(٩٢) الندوي ، *تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية* (بيروت، د.ت.) ، ١٦٨ .

(٩٣) المسعودي، *مروج الذهب* ، ١: ٢١٣ .

(٩٤) المسعودي، *مروج الذهب* ،١: ٢١٠ .

(٩٥) أحمد مقبول ، العلاقات التجارية بين الهند والعرب ، *مجلة ثقافة الهند* ، ١ (١٩٦٥ م)، ١٦ .

(٩٦) البلاذري، *فتوح البلدان* ، ٤٦٢ .

(٩٧) انظر : البلاذري ، *فتوح البلدان*، ٤٣١ . ويذكر علي بن حامد الكوفي أن عدد الأسرى بلغ ٣٠ ألفا. انظر : *فتح السند*، ١٨٦ .

(٩٨) المسعودي : *مروج الذهب*، ٢١٠ .

(٩٩) المقدسي ، *أحسن التقاسيم*، ٤٧٩ .

(١٠٠) الحميري ، *الروض المعطار*، ٥٤٩ .

(١٠١) عبد اللطيف ، *العالم الإسلامي*، ٤٤٨ .

(١٠٢) الشيخلي والآلوسي ، *تاريخ الإسلام*، ١٥٣ .

(١٠٣) ابن سعيد ، *كتاب الجغرافيا* ، انظر مقدمة التحقيق لإسماعيل العربي ، ٣٣ .

(١٠٤) لمزيد من التفاصيل حول اعتناق أهالي شبه القارة الهندية الإسلام ، انظر : عبد اللطيف ، *العالم الإسلامي*، ٤٤٤-٤٤٧ .

(١٠٥) المقدسي، *أحسن التقاسيم* ، ٤٨٠ .

(١٠٥) المقدسي ، *أحسن التقاسيم* ، ٤٨٠ .

(١٠٦) عبد اللطيف ، *العالم الإسلامي*، ٤٤٥ .

(١٠٧) عاشور و خليفات ، *عمان*، ٥٦ .

(١٠٨) البلاذري ، *فتوح البلدان*، ٤٣٠ .

(١٠٩) ياقوت، *معجم البلدان*، ٢١١ .

(١١٠) الكوفي ، *فتح السند*، ٢٣٣ .

(١١١) البلاذري ، *فتوح البلدان* ، ٢٢٨ .